

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧ - سُورَةُ النَّمْلِ

قال المهايغيّ : سميت بها ، لاشتمالها على مقاتلها ، الدالة على علم الحيوان بنزاهة الأنبياء وأتباعهم ، عن ارتكاب المكاره عمداً . وهو مما يوجب الثقة بهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية وآياتها ثلاث وتسعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طسّ ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ)

[٢] (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٣] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« طسّ ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ » الإشارة إلى نفس السورة. والقرآن

عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل. أى تلك السورة آيات القرآن الذى عرف بعلو الشأن.

وآيات كتاب عظيم المقدار ، مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواظظ والاعتبار .

« هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

هُمْ يُوقِنُونَ » أى هو هدى من الضلالة، وبشرى برحمة الله ورضوانه، لمن آمن وعمل صالحاً

من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأيقن بالآخرة ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها .

لطيفة :

تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص على ما فى (الكشاف) .

ولصاحب (الانتصاف) وجه آخر قال : لما كان أصل الكلام (وهم يوقنون بالآخرة)

ثم قدم المجرور على عامله ، عناية به ، فوق فاصلاً بين المبتدأ والخبر ، فأريد أن يلي المبتدأ خبره ،

وقد حال المجرور بينهما ، فطرى ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقى

على حاله مقدماً : ولا يستفكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها ، بعد ما يوجب التطرية .

فأقرب منها أن الشاعر قال :

سَلْ ذُو وَعَجَلْ ذَاوَالْحِقْنَ بِنَدَا ۱۱ الشَّحْمِ ، إِنَّا قَدْ مَلَلْنَاهُ بِخَلِّ

والأصل (وألحقنا هذا الشحم) فوق منتصف الرجز أو منتهاه (على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل) عند اللام . وبنى الشاعر على أنه لا بد ، عند المنتصف أو المنتهى ، من وقيفة ما . فقدر بتلك الوقفة بُعداً بين المعرف وآلة التعريف . فطراها ثانية . فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير .

ثم قال : فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل . والله أعلم .

ثم تأثر أحوال المؤمنين بأحوال الكفرة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)

[٥] (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسْرُونَ)

[٦] (وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

[٧] (إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاءَتِ كَيْفَ مِّنْهَا بَخْبَرٍ أَوْءَاتِيكُمْ

بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٨] (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ)

«إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ» أى مددناهم في

غيبهم ، فهم يتيهون في ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة والجزاء على

الأعمال كما قال (١) تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ)

«أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسْرُونَ» أى أشد الناس

(١) [٦ الأنعام / ١١٠] .

خسرانا للنجاة وثواب الله . « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » أى لتؤتاه وتلقته من عند حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمر جليها وخفيها . نخبه هو الصدق المحض والحكمة البالغة ، كقَالَ (١) (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) والجملة مستأنفة ، سقيت بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم ، تمهيداً لما يعقبه من الأنباء الجميلة . وقد بدأ منها بما كان من أمر موسى عليه السلام واصطفائه وإيتائه من الآيات الباهرة ما أذل معانديه ، وجعلهم مثل السوء . فقال سبحانه « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ عَ » أى حين قفل من مدين إلى مصر ، وأضلَّ الطريق « إِنِّي ءَأَنْتُ نَارًا » أى رأيتها « سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ » أى عن الطريق « أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسة « لَمَّا كُمُ تَصْطَلُونَ » أى تندفئون به « فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » أى بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها . ومكانها البقعة التى حصلت فيها . وتدل عليه قراءة أُبْنِي (تباركت الأرض ومن حولها) وعنه : بورت النار . والذى بورت له البقعة ، وبورك من فيها وحوايلها ، حدوث أمر ديني فيها ، وهو تكليم الله موسى ، واستنباؤه له ، وإظهار المعجزات عليه . ورب خير يتجدد فى بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير فى أقاليمها ويث آثار يمنه فى أبعادها . فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذى جرى فى تلك البقعة المباركة؟ كذا فى (الكشاف) .

وقال السمين : (بارك) يتعدى بنفسه . فلذلك بنى للمفعول : باركك الله ، وبارك عليك ، وبارك فيك وبارك لك . والمراد بـ (من) إما البارى تعالى وهو على حذف مضاف ، أى من قدرته وسلطانه فى النار . وقيل : المراد به موسى والملائكة . وكذلك قوله (وَمَنْ حَوْلَهَا) وقيل المراد بـ (من) غير العقلاء . وهو النور والأمكنة التى حولها . انتهى .

ولذا قال الزمخشري : والظاهر أنه عام فى كل من كان فى تلك الأرض وفى ذلك الوادى

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] .

وحواليهما من أرض الشام . قال : ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله (١)
(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) وحقت أن تكون كذلك .
فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحي إليهم ، وكفاتهم أحياء وأمواتا .
ثم قال : ومعنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه، هي بشارة له بأنه قد قضى أمر
عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة . انتهى .

وقال القرطبي : هذا تحية من الله تعالى لموسى ، وتكرمة له . كما حيا إبراهيم على السنة
الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا (٢) (رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ وَعَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) .
وعن ابن عباس : لم تكن تلك النار نارا ، وإنما كانت نوراً يتوهج .
وعنه : هي نور رب العالمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ
(إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه . يرفع إليه عمل الليل قبل النهار
وعمل النهار قبل الليل . حجاب النور أو النار . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء
أدركه بصره) ثم قرأ أبو عبيدة : أن بورك من في النار ومن حولها .

قال ابن كثير : وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم (٣) من حديث عمرو بن مرة «وَسُبْحَانَ
اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أى الذى يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء
من مصنوعاته ، وهو العليّ العظيم المبين لجميع المخلوقات ، ولا يسكتفه الأرض والسموات ،
بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات . قاله ابن كثير .

وقد أفاد أن المقام اقتضى التنزيه ، دفعا لإيهام مالا يليق من التشبيه . ثم إن موسى عليه
السلام ، أعلمه تعالى بأنه هو الذى يكلمه ويناجيه ، لاملِك ولا خلق آخر ، بل ذاته العلية
المستحقة للألوهية والنموت القدسية ، فقال سبحانه :

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧١] . (٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) أخرجه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٥ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَمْوَسَىٰ آيَاتِهِۦۭ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[١٠] (وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ،

يَمْوَسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ)

[١١] (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[١٢] (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ، فِي تِسْعِ آيَاتٍ

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦۭ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« يَمْوَسَىٰ آيَاتِهِۦۭ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » وفي إشار هذه الأسماء الجليلة سرّ بديع.

وهو الإشارة الجميلية إلى روح إرساله عليه السلام. أي: أنا الله لا تلك المعبودات التي عكف عليها

قوم فرعون، العزيز الغالب القاهر لسكالات متمردها، الحكيم في البعثة والإرسال، والتفضل

والإفضال. ثم أمره تعالى أن يلقى عصاه من يده ليريه دليلًا واضحًا على أنه القادر على كل شيء،

بقوله « وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ » هو ضرب من الحيات، أسرعه حركة

وأكثره اضطرابا « وَلَّى » أي من الخوف « مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أي لم يرجع على عقبه

من شدة خوفه « يَمْوَسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ » أي لحفظي لهم وعنايتي

بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم. وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة. وتشجيع له بنزع

الخوف. إذ لا يتمكن من أداء الرسالة، ما لم يزل خوفه من المرسل إليه. وقوله تعالى « إِلَّا

مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » استثناء منقطع. استدرك به ما عسى

يختلج في الخلد من نقي الخوف عن كلهم. مع أن منهم من فرطت منه صغيرة ما، مما يجوز

صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فإنهم وإن صدر عنهم شيء من ذلك، فقد فعلوا

عقبيه ما يبطله، ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة. وقد قصد به التعريض بما وقع من

موسى عليه الصلاة والسلام ، من وكزه القبطى والاستغفار . قاله أبو السعود . وسبقه الزمخشريّ حيث قال : يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجد من موسى . وهو من التعريضات التي يلفظ مأخذها ، وسماء ظلمها كما قال موسى (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) ثم أشار تعالى إلى آية خارقة غير العصا ، آناه إياها ، بقوله « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ » أى آفة كبرص « فِي تِسْعِ آيَاتٍ » أى غيرها تؤتاها ، إذ اجحد فرعون رسالتك . وهى ضرب ماء النهر بالعصا فينقلب دما . وإصعاد الضفادع على أرض مصر . وضرب التراب فتمتلئ الأرض قلا . وإرسال الجراد عليهم . والوباء الشديد . وإصابة أجسادهم بالقروح والدمامل والبثور . وإهلاك حصادهم بالبرد الشديد . وتغشيتهم بظلام كثيف ، على ماروى . وفى (تسع) أوجه : أحدها أنها حال ثالثة . أى تخرج آية فى تسع آيات . والثانى أنها متعلقة بمحذوف ، أى اذهب فى تسع . والثالث أن يتعلق بقوله (وَأَلْقِ عَصَاكَ) (وَأَدْخِلْ يَدَكَ) أى فى جملة تسع آيات . و(فى) بمعنى (مع) « إِلَى فِرْعَوْنَ » أى مرسلهم إلى فرعون « وَقَوْمِهِ إِِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ » أى خارجين عن الحدود ، فى الكفر والعدوان . وهذا تعليل للإرسال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

[١٥] (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَ اللَّهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ

كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)

[١٦] (وَوَرِثَ سُلَيْمٌ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ
وَأُوْتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)

«فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً» أي ظاهرة بينة «قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَعَدُوا
بِهَا» أي كذبوا بها بالسنتهم «وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ» أي عرفت أنفسهم أنها آيات يقينا،
لا سيما عند إلقاء السحرة ساجدين «ظُلْمًا» أي للآيات ، بتسميتها سحراً كقوله (١) (بِمَا
كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلَمُونَ) ولقد (ظلموا بها) «وَعُلُوا» أي تكبراً عن الانقياد لموسى
«فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» أي من إهلاكهم بالإغراق ، لغرقهم في بحر
الفساد والإفساد «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا» أي بالقضاء بين الناس ، وحكمة
باهرة «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ
دَاوُدَ» أي العلم والحكمة والنبوة أو الملك «وَقَالَ» أي تحدثا بنعمة الله وتنوينا بمنته «يَا أَيُّهَا
النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ» أي فهم صوته «وَأُوْتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْفَضْلُ الْمُبِينُ» أي البين الظاهر . وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة . كما قال
رسول الله ﷺ (٢) (أنا سيد ولد آدم ولا نخر) أي أقول هذا القول شكراً ، ولا أقوله نخرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[١٨] (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا

مَسَاكِنِكُمْ لَأَيِّطَمَّتْكُمْ سُلَيْمَانَ وَجُنُودَهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(١) [٧ / الأعراف / ٩] . (٢) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٣ -

باب في التخيير بين الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، حديث رقم ٤٦٧٣ .

[١٩] (فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

[٢٠] (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)

[٢١] (لَأَعَدِّبَنَّهٗ وَعَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ وَ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ)

[٢٢] (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ)

[٢٣] (إِنِّي وَجَدتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

[٢٤] (وَجَدَتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمَلَهُمْ فَوَسَدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)

[٢٥] (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ » أى جمع له عساكره « مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يجس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا « حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ « أرى أنهم متوجهين إلى وادئها « يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَكَلِّمُونَ سُلَيْمٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بمكانكم « فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا » أى تعجبا من حذرهما واهتدأتهما إلى تدبير مصالحتها ومصالح بنى نوعها . وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة ، فيما بين أصناف المخلوقات ، التى هى أبعدها من إدراك أمثال هذه

الأمر ، وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها . قاله أبو السعود
« وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ » أى ألهمنى
شكرها « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ
الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ وَعَذَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَأَأَذِيبَنَّهُ وَ أََوْ لِيَأْتِنِي بِلِسْطَانٍ مُّبِينٍ » أى بحجة تبين عذره « فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ » أى
فلبث في الغيبة أمداً غير طويل « فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَّامٍ » وهى مدينة
« بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » أى
سريرتجلس عليه ، هائل مزخرف بأنواع الجواهر « وَجَدْتَهَا وَقَوْمًا بِسُجُودٍ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فُصِّدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا »
أى هلا يسجدون . كما قرىء بذلك . وجوز بعضهم أن يكون معمولاً لما قبله . أى فُصِّدَهُمْ عَنِ
السَّبِيلِ لثلاث يسجدوا ، فحذف الجار مع (أن) أو أن تكون (لا) مزيدة ، والمعنى : فهم لا يهتدون
إلى أن يسجدوا « لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يظهر ماهو مخبوء
فيهما من نبات ومعادن وغيرها « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قرىء بالتاء والياء
على صيغة الغيبة . والجملة التحضيضية إمامستأنفة من كلامه تعالى ، أو محكية عن قول الهددهد .
واستظهر الزمخشري الثانى . قال : لأن فى إخراج الخبء أمانة على أنه من كلام الهددهد ،
لهندسته ومعرفة الماء تحت الأرض . وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض ،
جلت قدرته ولطف علمه . ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة النظار بنور الله ، مخايل كل مختص
بصناعة أو فن من العلم ، فى روائه ومنطقه وشمائله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

وكل شيء . فما أصغر عرشها في جنب عظمتها ! وما أضعف معبودها - الشمس - في جانب قدرته !

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم السجديات . قال الزخمرى : لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها . وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

[٢٨] (أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُوا مَاذَا يَرْجِعُونَ)

[٢٩] (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِي إِلَيْكُمْ كِتَابٌ كَرِيمٌ)

[٣٠] (إِنَّهُ وَمِنَ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

[٣١] (أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)

[٣٢] (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ)

« قَالَ » أي سليمان « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ * ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُوا مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِي إِلَيْكُمْ كِتَابٌ كَرِيمٌ » أي حسن مضمونه ومافيه « إِنَّهُ وَمِنَ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » أي لا تتكبروا علي ، وأتوني منقادين لأمرى « قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » أي لأبت

أمراً إلا بمحضركم ومشورتكم . ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

[٣٤] (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

[٣٥] (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)

« قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ » أى فى العدد والعدد « وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ » أى نجدة وبلاء فى الحرب « وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » أى وأمر القتال أو الصلح مفوض إلى رأيك . فانظري ما هو أبقي لشرفك وملسك « قَالَتْ » أى مشيرة إلى اختيار خطة المسألة وإيثارها ، بالنظر لحالتها ومرکزها وضعفها أمام عدوها ، بأن القتال إنما يؤثر إذا لم يغلب على الظن دخول العدو فى قرية العدو . والأتعين الانقياد . وذلك معنى قولها « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً » أى عنوة وقهرا « أَفْسَدُوهَا » أى أخرجوها « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أى بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » تأكيد لما وصفت من حالهم ، وتقدير له بأن ذلك عادتهم المستمرة . وقيل تصديق لها منه تعالى « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » أى وإنى سأرسل إلى سليمان وملثه رسلا بهدية توجب المحبة وتشبه الانقياد . من غير اختلال لشرفنا . ثم أنتظر بأى أمر يرجع المرسلون منه ، حتى أعمل على حسب ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۳۶] (فَلَمَّا جَاءَ مُسْلِمِينَ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانَنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ)

[۳۷] (أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)

[۳۸] (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي بَعْرَشٍ مَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِي مُسْلِمِينَ)

[۳۹] (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)

[۴۰] (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)

«فَلَمَّا جَاءَ مُسْلِمِينَ» أي المرسلون منها «قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانَنِي اللَّهُ» أي

من الملك والحكمة والنبوة «خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ» أي فلا أبالي بجميع ما عندكم فضلا عن الهدية «بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ» أي إذا أهدى إليكم مثلها ، أو أهديتم مثلها ، تفرحون استكثاراً أو افتخاراً «أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ» أي مهانون «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي بَعْرَشٍ مَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِي مُسْلِمِينَ» قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ
 أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي
 ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » أى ليختبرنى أشكر بالطاعة والعمل بالشريمة ، أم أكفر بالمعصية
 والمخالفة . وقوله تعالى « وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ
 كَرِيمٌ » كقوله (١) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) وكقوله (٢) (وَمَنْ
 عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ نَكِرُوا لَهُا عَرْشَهَا نَنْظُرْا أَهْتَدِيْ أَمْ تَكُوْنُ مِنَ الَّذِيْنَ لَا يَهْتَدُوْنَ)

[٤٢] (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهْكَذَا عَرْشُكَ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأُوْتِينَا الْعِلْمَ

مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِيْنَ)

« قَالَ نَكِرُوا لَهُا عَرْشَهَا » أى اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله ، كما يتنكر
 الرجل للناس « نَنْظُرْا أَهْتَدِيْ أَمْ تَكُوْنُ مِنَ الَّذِيْنَ لَا يَهْتَدُوْنَ » أى لمعرفة « فَلَمَّا
 جَاءَتْ قِيلَ أَهْكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ » قال المهاجى : لم تقل (هو هو) خوفاً
 من التكذيب ، مع نوع من التغيير . ولا (لا) خوفاً من التجهيل .

وقال الزمخشري : لم تقل (هو هو) ولا (ليس به) وذلك من راحة عقلها . حيث لم
 تقطع فى المحتمل . أى : فأتت بـ (كأن) الدالة على غلبة الظن .
 قال الشهاب : وهذا إشارة إلى أن (كأن) ليس المراد بها هنا التشبيه بل الشك ، وهو
 مشهور فيها .

وقد أبدى صاحب (الانتصاف) فرقاً بين (كأن) و (هكذا) فى التشبيه . وعبارته :

(١) [٤١ / فصلت / ٤٦] و [٤٥ / الجاثية / ١٥] . (٢) [٣٠ / الروم / ٤٤] .

وفي قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول (هكذا هو) - نكتة حسنة . ولعل قائل يقول : كلتا العبارتين تشبيه . إذ كان التشبيه فيهما جميعاً ، وإن كانت في إحداها داخلية على اسم الإشارة ، وفي الأخرى داخلية على المضمرة ، وكلاهما (أعنى اسم الإشارة والمضمرة) واقع على الذات المشبهة . وحينئذ تستوى العبارتان في المعنى . ويفضل قولها (هكذا هو) بمطابقته للسؤال . فلا يد في اختيار (كَأَنَّهُ هُوَ) من حكمة . فنقول : حكمته ، والله أعلم ، أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغير بين الأمرين . فكاد يقول (هو هو) وتلك حال بليقيس . وأما (هكذا هو) فعبارة جازم بتغير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير . فلماذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة ، لمطابقتها لحالها ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى « وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنَ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ » هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، شكراً لله على فضلهم عليها ، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام . أى : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصححة ما جاء من عنده ، قبل علمها الذي أومأ إليه قولها (كأنه هو) والجملة عطف على مقدر اقتضاه المقام المقتضى ، للإفاضة في وصفها برجحة الرأي في الهداية للإسلام . والتقدير : أصابت في جوابها وقد رزقت الإسلام ، وعلمت قدرة الله . وأوتينا العلم الخ . وقيل : إنه من كلام بليقيس ، موصولاً بقولها (كأنه هو) ، لامن كلام سليمان . كأنها ظفرت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ، فقالت : أوتينا العلم الخ . أى لا حاجة إلى الاختبار لأنى آمنت قبل . وهذا يدل على كمال عقلها .

أو المعنى : علمنا إتيانك بالعرش قبل الرؤية ، أو هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار . قال ابن كثير : ويؤيد الأول ، أى أنه من كلام سليمان ، أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ)

[٤٤] (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ،

قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَصَدَّهَا » أى وكان صدها عن الهداية « مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ

مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ » أى القصر، أو حن الدار وكان سليمان عليه

السلام اتخذ قصرًا أبدعًا من زجاج، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه، ومقدار ما آثره

الله به « فَلَمَّا رَأَتْهُ » أى حننه « حَسِبَتْهُ لُجَّةً » أى ماء عظيمًا « وَكَشَفَتْ » أى للخوض فيه

« عَنْ سَاقِيهَا ، قَالَ إِنَّهُ وَ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ » أى مملس « مِّن قَوَارِيرَ » أى من الزجاج « قَالَتْ

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » أى بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس « وَأَسَأَمْتُ مَعَ

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى متابعة له فى دينه وعبادته لله وحده لا شريك له .

تنبيهات :

الأول - روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصح سندًا ولا خبرًا . وما هذا

سبيله ، فلا يسوغ نقله وروايته .

قال الحافظ ابن كثير ، بعد أن ساق ما رواه ابن أبى شيبه عن عطاء مستحسنًا له ،

ما مثاله : قلت : بل هو منكر غريب جدا . ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ،

والله أعلم .

ثم قال : والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى

صحفهم . كروايات كعب وهب ، ساجهما الله تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى

إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب . مما كان ومما لم يكن . ومما حرف وبدل ونسخ .

وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، والله الحمد والمنة .
 الثاني - أشير في (التوراة) في الفصل الرابع من سفر الملوك الثالث إلى تفصيل نبأ سليمان عليه السلام وعظمة ملكه وساطانه . ومما جاء فيه أن سليمان كان متسلطاً على جميع الممالك من نهر الفرات إلى أرض فلسطين وإلى تخم مصر . وإن ملوك الأطراف كانوا يحملون له الهدايا خاضعين له كل أيام حياته أي أنها تؤدى له الجزية ، وإن كان ملكه محصوراً في فلسطين . وأن الله تعالى آتاه حكمة وفهما ذكياً جسداً ، وسعة صدر . ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق وأهل مصر . وقال ثلاثة آلاف مثل . وتسكلم في الشجر ، من الأرز الذي على لبنان إلى الزوفى التي تخرج في الحائط . وتسكلم في البهائم والطيور والزحافات والسمك . وأما صرحه وبيته عليه السلام ، فقد جاء وصفه في الفصل الخامس من السفر المتقدم . وأنه أكمل بناءه في ثلاث عشرة سنة . وأنه بنى جازراً وبيت حورون السفلى وبعثت وتدمر في أرض البرية . وجاء في الفصل العاشر من هذا السفر أيضاً قصة ملكة سبأ ومقدمها من اليمن على سليمان لتخبر حكمته وعظمة ملكه ، ودهشتها مما رآته وتحققته ، وإيمانها بربه تعالى . ثم إعطاؤه إياها بغيتها . ثم انصرافها إلى أرضها .
 وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ما تقدم سوق مؤرخ ، بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق ما بين يديه ، ومهيمن عليه ، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة . ومثار التبصر والفطنة .

الثالث - مما استنبط من آيات هذه القصة الجميلة ، أن في قوله تعالى (فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا) أنه لا بأس بالتبسم والضحك عند التعجب وغيره . وفي قوله تعالى (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ)

استحجاب تفقد الملك أحوال رعيته . وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان ، فأشدد :

تفقد الإخوان مستحسن	فن بداه نعم ماقد بدا
سن سليمان لنا سنة	وكان فيما سنه مقتدى
تفقد الطير على ملكه	فقال : مالى لا أر الهددا

وأن في قوله تعالى (لَا عَذَابَ بِنهْ وَ عَذَابًا شَدِيدًا) الآية، دليل على أن العذاب على قدر الذنب، لا على قدر الجسد . وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهايم بالضرب عند تقصيرها في المشي وإسراعها ونحو ذلك. وأن في قوله تعالى (قَالَ أَحَطُّ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ) أن الصغير يقول للكبير والتابع للمتبع : عندي من العلم ما ليس عندك ، إذا تحقق ذلك . وأن في قوله تعالى (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم ، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به . وأن في قوله تعالى (أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلَّهِيهِمْ) إرسال الطير بالكتب . وأن في قوله تعالى (كِتَابٌ كَرِيمٌ) استحباب ختم الكتب ، لقول السدي : كريم بمعنى محترم . وأن في قوله تعالى (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أُوْتُونِي فِي أَمْرِي) المشاورة والاستعانة بالأراء في الأمور المهمة . وأن في قوله تعالى (أَمْ تَدُونَنَ بِمَالٍ) الآية ، استحباب رد هدايا المشركين . كذا في (الإكليل) بزيادة . ثم أخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)

[٤٦] (قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحُسْنَىٰ ، لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[٤٧] (قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ ، قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ »

أى فريق مؤمن وفريق كافر . يختصمون خصومة لا يرجع فيها المبطل إلى الحق بعد ما تبين له . كقوله تعالى (١) « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْ صِلِحًا مَّرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ ءَامِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَكْفُرُونَ » « قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَمْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى بالعقوبة السيئة قبل التوبة الحسنة . أى لم تدعون بحضور العقوبة ولا تطلبون من الله رحمة بالإيمان « لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا أَطَّيَّرْنَا » أى تطيرنا أى تشاء منا « بِنِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ » أى من المؤمنين . وقد كانوا ، لشقاؤهم ، إذا أصيبوا بسوء قالوا : هذا من قبل صالح وصحبه « قَالَ طَّيَّرَ كُمْ عِنْدَ اللَّهِ » أى سببكم الذى يجيء منه خيركم وشركم عند الله . وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرملك . قاله الزمخشري .

قال الشهاب : لما كان المسافر من العرب إذا خرج مرّ به طائر ساجحا ، وهو ما وليه بجسرته ، أو بارحا وهو ما وليه بيمينته - تيمنوا بالأول وتشاءوا بالثانى . ونسبوا الخير والشر إلى الطائر . ثم استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته . أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنقمة . ومنه (طائر الله ، لا طائر ك) « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ » أى مفتونون بضلالكم وكفركم . لاترون حسنا إلا ما يوافق هواكم ، ولا شؤما إلا يخالفه . ثم أخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر ، وتكذيب صالح عليه السلام ، وما آل بهم الأمر ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

(١) [٧ / الأعراف / ٧٥ و ٧٦] .

[٤٩] (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّهٗ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

[٥٠] (وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكَرًا وَمَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥١] (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٢] (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

«وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» أي شأنتهم وعادتهم

الإفساد، كما يفيد المضارع وتأكيده بقوله (في الأرض) الدال على عموم فسادهم. وهو صفة (رهط)

أو (تسعة) «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ» أي ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين، بالله الذي

هو أعظم المعبودين «لَنُبَيِّنَنَّهٗ و» أي لنقتلنه ليلاً. وقرئ بالتاء على خطاب بمضهم لبعض

«وَأَهْلَهُ و» أي من آمن معه. «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ» أي الطالب ثأره علينا «مَا شَهِدْنَا

مَهْلِكَ أَهْلِهِ» أي ما حضرنا مكان هلاك الأهل، مع تفرقهم في الأماكن الكثيرة، فضلاً

عن مكانه، فضلاً عن مباشرته «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» أي ونحلف إننا لصادقون. أو: والحال

إننا لصادقون فيما ذكرنا «وَمَكْرُؤًا مَكَرًا» أي بهذه الحيلة «وَمَكْرًا مَكَرًا» أي بأن

جعلناها سبباً لإهلاكهم «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا

دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ» أي خالية ساقطة. لم تعمر بعدهم

لأنهم استؤصلوا «بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» أي بأنهم ما أخذوا إلا

لظلمهم. وإن عاقبة الظلم الدمار والبوار.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٥٤] (وَلَوْ طَآءِذُ قَالَ لِقَوْمِهِ ءَاتَاؤُنَ الْفَاحِشَةَ وَآتَمُّ تَبْصِرُونَ)

[٥٥] (أَإِنِّكُمْ لَتَتَّأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

[٥٦] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ،

إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ)

[٥٧] (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ أُمَّرَأَتَهُ وَقَدَّرْنَا لَهَا مِنَ الْغَیْرِینَ)

[٥٨] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِینَ)

[٥٩] (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، ءَإِلَّا اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا » يعنى صالحًا عليه السلام ومن معه « وَكَانُوا يَتَّقُونَ *

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » أى قبحها ومضادتها لحكمه

تعالى وحكمته « أَإِنِّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ » أى متجاوزين النساء

اللاتى هن محال الشهوة « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى تفعلون فعل الجاهلين سفها وعمى عن

العاقبة « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ

أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ » أى يتزهون عن أفعالنا ورونها رجسًا . قالوا استهزاء « فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَ

إِلاَّ أُمَّرَأَتَهُ وَقَدَّرْنَا لَهَا مِنَ الْغَیْرِینَ » أى الباقيين فى العذاب « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى

هائلا غير معهود « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِینَ * قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ

اصْطَفَىٰ ءَإِلَّا اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ » قال الزمخشري : أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات

الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شىء وحكمته . وأن يستفتح بتحميده ،

والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث

على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بكنائهما ، على قبول ما يلقى إلى السامعين ،

وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المسمع . ولقد توارث العلماء والخطباء

والوعاظ كابرًا عن كابر هذا الأدب . فحمدوا الله عز وجل ، وصلوا على رسول الله ﷺ ، أمام

كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وتذكرة ، وفي مفتتح كل خطبة . وتبعهم المترسلون . فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على المهالكين من كفار الأمم . والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين .

ثم قال : معلوم أن لاخير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكة . وإنما هو إزام لهم وتبكيك وتهكم بحالهم . وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله . ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء ، إلا لداع يدعوه إلى إشاره ، من زيادة خير ومنفعة . فقييل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه ، وأنهم لم يؤثره لزيادة الخير ، ولكن هوى وعبثاً ، لينبئوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورط . وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول . وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه^(١) عن فرعون (أمم أننا خير من هذا الذي هو مهين) مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحتته .

ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عدد هاهنا في موضع آخر . ثم قال (هل من شر كآبكم من يفعل من ذلكم من شيء) .

لطيفة:

قال ابن القيم في (طريق المجرتين) في هذه الآية : كلمة (السلام) هنا تحتل أن تكون داخلية في حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية ، وهي (الحمد لله) ويكون الأمر بالقول متناولاً للجملة معاً . وعلى هذا ، فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ، ويكون محلها الفصيح محكية بالقول .

ويحتل أن تكون الجملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب . وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٢] .

وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم . وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلى الله عليهم وسلم .

وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم .

ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما . فلا يحسن

أن يقول : قم وذهب زيد . ولا اخرج وقعد عمرو .

ويجاب على هذا بأن جملة الطلب ، قد حكيت بجملة خبرية ، ومع هذا لا يمتنع العطف

فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه .

وهذا نظير قوله تعالى^(١) (قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُعْنِي

الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

فقوله (وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ) ليس معطوفاً بالقول وهو (انظروا) بل معطوف على الجملة

الكبرى .

على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى^(٢) (قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ،

وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) وقوله^(٣) (وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ

خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) .

والمقصود أنه على هذا القول ، يكون الله سبحانه قد سلم على المصطفين من عباده ،

والرسل أفضلهم . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَمْنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا

بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَلَيْسَ

مَعَ اللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١١٢] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ١١٨] .

[٦١] (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٢] (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٦٣] (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ ، تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إضراب وانتقال، من التبكيك تعريضاً، إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد. أى: بل من خلق السموات والأرض، وأودع فيهما من المنافع ما لا يحصى « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ وَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ » أى بساتين ذات حسن ورونق يبهج النظر « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُدْبِتُوا شَجَرَهَا أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ » أى: أعلاه آخر كائن مع الله، الذى ذكر بعض أفعاله، التى لا يكاد يقدر عليها غيره، حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى فى العبادة؟ وهذا تبكيك لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى، فى ضمن النفي الكلى على الطريقة البرهانية، بعد تبكيكهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من التردد. قاله أبو السعود « بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » أى عن طريق الحق . أو به تعالى غيره . « أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا » أى قارة لا تنكفي بمن عليها. أو مستقراً لمن عليها، يتمتعون بمنافعها « وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا » أى برزخاً مانعاً من المازجة « أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ » أى فى الوجود، أو فى إبداع هذه البدائع « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئاً من الأشياء. ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك، مع كمال ظهوره « أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » وهو الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر، إلى اللجأ والتضرع إلى الله تعالى . اسم مفعول من (الاضطرار) الذى هو افتعال من

(الضرورة) وهي الحالة المحوجة إلى اللجأ أى الالتجاء والاستناد .

قال ابن كثير : يذّبه تعالى أنه المدعوّ عند الشدائد ، الموجود عند النوازل ، كما قال تعالى (١) « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ » وقال تعالى (٢) « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُّونَ » وهكذا قال ههنا (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟

وقال ابن القيم فى (الجواب الكافى) : إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف انكساراً بين يدى الرب وذلاله وتضرعاً ورقة ، ثم توسل إليه تعالى بأسمائه وصفاته وتوحيده ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً . ولا سيما إن صادف الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ ، أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم . ثم ساقها ابن القيم مسفدة .

ثم قال : وكثيراً ما مجّد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجبت دعوته . فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً ، فى الوقت الذى ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى . فانتفع به . فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجردة ، كافى فى حصول المطلوب ، كان غلطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس . ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب . فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى الله . انتهى .

وقوله تعالى (١) « وَيَكْشِفُ السُّوءَ » أى كل ما يسوءه مما يضطر فيه وغيره « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » أى خلفاء فيها . وذلك توارثهم سكنائها ، والتصرف فيها قرناً بعد قرن .

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٣] .

أو أراد بالخلافة الملك والتسلط . قاله الزمخشري « أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَدَّ كَرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أي بالنجوم في السماء ، والعلامات في الأرض ، إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر « وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » وهي المطر « أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (أَمَّنْ يَبْدُوْا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُوْا وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ ،

أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٦٥] (قُلْ لَّا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ اَلْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ

أَيَّأَنَ يُبْعَثُونَ)

« أَمَّنْ يَبْدُوْا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُوْا » أي بعد الموت بالبعث . فإن قيل : هم منكرون

للإعادة ، فكيف خوطبوا بها خطاب المترف؟ أجيب بأنها لظهورها ووضوح براهينها ، جعلوا كأنهم معترفون بها ، لتسكنهم من معرفتها - فلم يبق لهم عذر في الإنكار . فلاحاجة إلى القول بأن منهم من اعترف بها ، فالكلام بالنسبة إليه « وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ » أي مما ينزله من مائها وما يخرجها من نباتها « أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت . أي هاتوا برهاناً عقلياً أو نقلياً ، يدل على أن معه تعالى إلهاً . لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله تعالى ، فإنهم لا يدعون صريحاً . وفي إضافة (البرهان) إلى ضميرهم ، تهكم بهم . لما فيها من إيهام أن لهم برهاناً . وأنى لهم ذلك؟ قاله أبو السعود « قُلْ لَّا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ اَلْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ » أي فإنه المفرد بذلك وحده ، كما قال (١) « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ اَلْغَيْبِ لَّا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ » في آيات

(١) [٦ / الأنعام / ٥٩] .

لا تحصى . والاستثناء منقطع ، لاستحالة أن يكون تعالى ممن في السماء والأرض . أو متصل ، على أن المراد ممن في السموات والأرض ، من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها مجازا مرسلًا أو استعارة . فإنه يعيّم الله تعالى وأولى العلم من خلقه « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أي متى ينشرون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلِ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ)
 « بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ » قال السمين : فيه وجهان : أحدهما - أن (في) على بابها ، و (أدرك) وإن كان ماضيا لفظا ، فهو مستقبل معنى . لأنه كائن قطعاً . كقوله (١)
 « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ » .

وعلى هذا (في) متعلق بـ (أدرك) .

والثاني - أن (في) بمعنى الباء . أي بالآخرة .

وعلى هذا فيتعلق بنفس علمهم . كقولك (علمي يزيد كذا) انتهى .

والوجه الثاني على الاستفهام . أي بل هل أدرك علمهم فيها ، أي بلغ وانتهى ؟ كلا .

وقد قرىء (بل أدرك) بهمزتين و (بل آدرك) بألف بينهما و (أم أدرك) و (أم تدارك)

قال الرازي : وهي (أم) التي بمعنى (بل) والهمزة . فالعنى على الاستفهام على وجه

الإنكار لإدراك علمهم بها ، وأنهم لم يبرحوا في حضيض الجهالة بحقيقتها ، مع ما يتلى عليهم من أدلة ثبوتها .

وقد جنح إلى الكلام على تقدير الاستفهام ، السيوطي والمهايمي . وذهب غيرها إلى

إبقاء (بل) على أصلها من الإضراب الانتقالي . وقرروه بما فيه خفاء ودقة . ويبيده ما ذكرنا

(١) [١٦ / النحل / ١] .

من القراءات الصريحة في الاستفهام. وهي مما يرجع إليها إذا اشتبه المقام. كما تقرر في قواعد التفسير « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا » أى مرية ، مع تقرير ما يزيله ويكشف غشاوته « بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ » أى فى عمائة وجهل كبير .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هى إلا تنزيل لأحوالهم : وَصَفَهُمْ أَوْلًا بِأَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَقَتِ الْبَعْثِ . ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة . ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه . والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض ، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جائم ، لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل ؟ ثم بما هو أسوأ حالا ، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يُخَطِرُ بِيَالِهِ حَقًّا وَلَا بَاطِلًا وَلَا يَفْكَرُ فِي عَاقِبَةٍ . وقد جعل الآخرة مبدأ عمائم ومنشأه . فلذلك عداه (من) دون (عن) لأن الكفر بالعاقبة والجزاء ، هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّآبَاءُونَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ)

[٦٨] (لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا لِمَن كَانَ مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا سَاطِرُ الْأَوَّلِينَ)

[٦٩] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

[٧٠] (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بوعد الله وآياته وعلمه وقدرته وحكمته « أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّآبَاءُونَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ » أى من القبور « لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا لِمَن كَانَ مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا سَاطِرُ الْأَوَّلِينَ » أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى سطورها بعبارة مموّهة « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ » أى لتبصروا آثار القائلين هذا القول قبلكم « فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » بإنكاره . وهى دمارهم وهلاكهم بالاستئصال « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على قولهم وتكذيبهم . فإنه سيكون لك من المصدقين من لا يبالي معهم بهؤلاء ، كقوله تعالى (١) (فَلَمَّا كَبَخِعْتُمْ نَفْسَكُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) « وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » أى فى حرج صدر من مكروهم وكيدهم لك . ولا تبال بذلك ، فإن الله يعصمك من الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٧١] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
- [٧٢] (قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)
- [٧٣] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)
- [٧٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تَكْنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)
- [٧٥] (وَمَا مِنْ غَابِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)
- [٧٦] (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَاقُصُّ عَلَىٰ ابْنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)
- « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ » أى بالعذاب « إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ » أى لحقكم أودنا لكم « بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » أى من العذاب ، فصل لهم القتل بيد . ولعذاب الآخرة أمر . قال الزمخشري : (وعسى) و(لعل) و(سوف) فى وعد الملوك ووعدهم ، يدل على صدق الأمر وجدّه ، وما لا مجال للشك بعده . وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يمجلون بالانتقام ، لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ، ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم ، وأن الرزمة إلى الأغراض كافية من جهتهم . فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده . انتهى . أى لأن حقيقة الترجى محال فى حقه تعالى . فهو على هذا استعارة تمثيلية . قاله

(١) [١٨ / الكهف / ٦] .

الشهاب « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى لذو إفضال وإنعام عليهم ، بتأخير العقوبة وعدم معاجلتهم بها . ولكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه ، بل بجهلهم يستعجلونها « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من عداوة رسوله ونصب المكائد له . وهو معاقبهم على ذلك « وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ » أى وما من خافية فيهما ، إلا وقد علمها الله وأحاط بها وأثبتها فى اللوح البين ، المثبت فيه مقدوراته تعالى . أو المراد بالكتاب القضاء العدل ، على طريق الاستعارة ، بتشبيهه بالكتاب الجامع للوقائع ، كالسجل « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فهو مصدق لما بين يديه ، ومهيمن عليه . يقص القصص الحق ، ويفصل بين ما اختلفوا فيه بالصدق . فالعول من أنبياءهم عليه ، ومرد ما اختلفوا فيه إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

[٧٨] (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

[٧٩] (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[٨٠] (إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

[٨١] (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ

بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

« وَإِنَّهُ وَ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى بما فيه من إقامة الدلائل ورفع الشبه التى يعقلها

المؤمنون المنصفون المصدقون بالحق ، المذعنون له « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ » أى

بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ، بعدله وحكمته « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى فلا يرد قضاؤه الغالب

في انتقامه من المبطلين «أَلْعَلِمِمْ» أى بالفصل بينهم وبين المحقّين . ثم أمره تعالى بقلة المبالاة بأعدائه، وبالضىّ في دعوته وانتظار الوعد الحق، بقوله «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ» أى الأبلج الذى لا ريب فيه . قال الزمخشريّ : وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل. ثم أشار تعالى إلى كفاية نفع دعوته للمؤمنين، الذين هم أولياؤه وحزبه، وإلى أن السكل لا يرجى منهم الهداية، كآية^(١) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) تسلية عما كان يهمه من إيمانهم، بقوله سبحانه «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْأَصْمَّ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَّاتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» قال الزمخشريّ : شبّهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقباع القول، لا تميّه آذانهم . وكان سماعهم كلا سماع . كانت حالهم، لانتفاء جدوى السماع، كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع، وكذلك تشبيهم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم، وأن يجعلهم هداة بصراء، إلا الله عز وجل. فإن قلت: ما معنى قوله (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)؟ قلت: هو تأكيد لحال الأصمّ. لأنه إذا تباعد عن الداعي، بأن يولّى عنه مدبرا، كان أبعد عن إدراك صوته. انتهى .

وإيراد قوله (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَّاتِهِمْ) إثر ما تقدم، للمبالغة في نفي الهداية. وقوله تعالى (إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) أى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا، إلا من شأنه الإيمان بها. وقوله (فَهُمْ مُسْلِمُونَ) تعليل لإيمانهم بها. كأنه قيل: فإنهم مفقادون للحق. وقيل: معناه مخلصون، من قوله^(٢) (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) يعنى جملة سالما لله خالصا له .

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١١٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ
أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ)

« وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » اعلم أن في هذا الوعيد وجوها من التأويل :
الأول - أنه دنيوي ، عني به نصر الرسول صلوات الله عليه ، عليهم . والمعنى أن أولئك
الصم عن سماع الآيات ، العمى عن النظر فيها ، الجاحدين لها ، سيأتهم أبناء حقيقة ما كانوا
يدعون إليه من نصر الداعي وهو الرسول وأتباعه ، وتكثير سوادهم حتى يظفروا بمناوئهم .
ويظفروا على عدوهم . وذلك بأن تدب إليهم من المؤمنين دابة عظيمة تملأ السهل والربى ،
تزلزل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتذك أعلامهم . فتكلمهم حينئذ بلسان الحال
أو المقال ، بأنهم إنما أخذوا بالعقاب ، وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد .
وسعيهم في الأرض الفساد . فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح . وقائد الفلاح والنجاح ،
وقد سبقت كلمته لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون . وقد صدق
الله وعده . وأعز جنده .

والوجه الثاني - أن الدابة حيوان بخلاف ما نعرفه . يختص خروجها بحين القيامة ، قال
بعضهم : والمعنى إذا قامت القيامة بعث الله نوعا مخصوصا من دواب هذه الأرض ، كما يبعث
غيره من أنواع الدواب الأخرى . وينطقه فيوخر الإنسان على كفره ، كما ينطق أعضاءه في
ذلك اليوم أيضا . قال : فليس المراد من قوله (دَابَّةً) الفرد ، بل النوع . كما في قولك (أرسل
الله عليهم دودة أتلقت زرعهم) أى ديدانا كثيرة ، من نوع واحد مخصوص . ١ هـ .

وقد روى فيها أحاديث وآثار كثيرة ، لم يصحح البخاري منها شيئا ، لاضطراب متونها

وضعف رجالها . وأمثل مآثرها ما أخرجه مسلم^(١) عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى . وأيهما ما كانت قبل صاحبها ، فالأخرى على إثرها قريباً) .

ومعلوم أن أمور الآخرة من عالم الغيب . ولا يؤخذ فيها إلا بما كان قطعى الثبوت .

الوجه الثالث - نقله الرابع في مفرداته قال : وقيل عنى بالدابة الأشرار الذين هم في الجهل بمنزلة الدواب . فتكون الدابة جمعا ، اسما لكل ما يدب . نحو (خائنة) جمع خائن . انتهى .
ولعل الآية كقوله تعالى^(٢) (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيَلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) فإن يأجوج ومأجوج كالدابة ، لما يغطي بديبه وجه الأرض - فهو مثل في الكثرة . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[٨٤] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَلَيْسَ لِي بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عَالِمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يحبس أولهم على آخرهم ، حتى يجتمعوا فيكذبوا في النار . وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعداً طرفه . كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله (فَوْجًا) ، فإن الفوج الجماعة الكثيرة . أفاده الزمخشري « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ » أى إلى المحشر « قَالَ » أى ليفضحهم في هذا اليوم المشهود

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث رقم ١١٨ (طبعتنا)

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٦ و ٩٧] .

« أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي » أى الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله « وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا » جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحة . ومؤكدة للإنكار والتوبيخ . أى أ كذبتم بها بادئ الرأي ، غير ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق حتماً؟ وهذا نص فى أن المراد بالآيات ، فيما ساف فى الموضوعين ، هى الآيات القرآنية . لأنها هى المنطوية على دلائل الصحة ، وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علماً ، مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها . لانفس الساعة وما فيها . أفاده أبو السعود «أَمَّا إِذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى بها . أو ماذا كان عملكم؟ هل هو إلا الفساد والإفساد؟ وصد السبيل عن العباد؟ ولذا حقت كلمة العذاب عليهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ)

[٨٦] (الْمَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا آلِي لَيْسَ كُنُوزًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٨٧] (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)

[٨٨] (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي

أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ خَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ)

[٨٩] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)

« وَوَقَعَ الْقَوْلُ » أى مدلوله وهو العقاب الموعودون به « عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ

لَا يَنْطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِي لَيْسَ كُنُوزًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى ليبصروا ، بما

فيه من الإضاءة ، طرق التقاب فى أمور الماش « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَيَوْمَ

يُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَنَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ»
 أى حضر والموقف بين يديه «دَاخِرِينَ» أى صاغرين «وَتَرَى الْجِبَالَ» عطف على (ينفخ)
 داخل فى حكم التذكير «تَحْسَبُهَا جَامِدَةً» أى ثابتة فى أما كتبها «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»
 أى فى تخلل أجزائها وانتفاشها . كما فى قوله تعالى^(١) (وَتَسْكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)
 «صُنِعَ اللَّهُ لِدَىٰ أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» ، إِنَّهُ وَ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» أى فيجازيهم عليه .

تنبيه :

ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية هو ما ذهب إليه كثير . قالوا : المراد بهذه الآية تسيير
 الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، حينما يبمد الله تعالى العوالم ، كما قال^(٢) (وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ
 فَكَانَتْ سَرَابًا) وكما قال^(٣) (وَإِذَا الْجِبَالُ سُسِّمَتْ) وقال^(٤) (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
 الْمَنْفُوشِ) .

وقال بعض علماء الفلك : لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه ، لعدة وجوه :
 الأول - أن قوله تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) لا يناسب مقام التحويل
 والتخويف إذا أريد بهما يحصل يوم القيامة . وكذلك قوله^(٥) (صُنِعَ اللَّهُ لِدَىٰ أَتَقَنَ كُلَّ
 شَيْءٍ) لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة ، على أن محل هذه الآية على المستقبل ، مع أنها صريحة فى
 إرادة الحال ، شىء لا موجب له . وهو خلاف الظاهر منها .

الثانى - أن سير الجبال للفناء يوم القيامة ، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق
 وهذا شىء لا يراه أحد من البشر كما قال^(٦) (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) أى من الملائكة . فما معنى قوله^(٧) (وَتَرَى الْجِبَالَ
 تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) ؟

(١) [١٠١ / القارعة / ٥] . (٢) [٧٨ / النبأ / ٢٠] . (٣) [٧٧ / المرسلات / ١٠] .

(٤) [١٠١ / القارعة / ٥] . (٥) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

(٧) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثالث - أن تسيير الجبال الذي يحصل يوم القيامة ، إذا رآه أحد شعر به . لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان ، فيحسّ بحركتها . وهذا يتنافى قوله تعالى (تَحْسَبُهَا جَامِدًا) أى ثابتة . أما في الدنيا فلا نشعر بحركتها ، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها . وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة . فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نسفًا . وهذا شيء يراه كل واقف عندها .

الرابع - ورود هذه الآية في سياق الكلام على يوم القيامة ، لورود آية (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُومًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) المذكورة قبلها في نفس هذا السياق، والمراد بهما ذكر شيء من دلائل قدرة الله تعالى ، المشاهدة آثارها في هذا العالم الآن من حركة الأرض وحوادث الليل والنهار، ليكون ذلك دليلاً على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة ، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان ، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحصيها عليه . ولذلك ختم هذه الآية بقوله (إِنَّهُ وَخَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ) فذكر هذه الأشياء في هذا السياق ، هو كذكر الدليل مع الدلول ، أو الحججة مع الدعوى . وهى سنة القرآن الكريم . فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائماً ، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها . وذلك شيء مشاهد في القرآن من أوله إلى آخره . اه كلامه .
وقال العلامة المرجاني في مقدمة كتابه (وفية الأسلاف ، وتحية الأخلاف) في بحث علم الهيئة ، ما مثاله :

ويدل على حركة الأرض قوله تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ) الآية . فإنه خطاب لجناب الرسول ﷺ ، وإيدان الأمر له بالأصالة مع اشتراك غيره في هذه الرؤية . وحسبان جهود الجبال وثباتها على مكانها ، مع كونها متحركة في الواقع بحركة الأرض ، ودوام مرورها مرّ السحاب في سرعة السير والحركة . قال : وقوله (صُنِعَ اللَّهُ) من المصادر المؤكدة لنفسها . وهو مضمون الجملة السابقة . يعنى أن هذا المرور هو صنع الله .

كقوله تعالى^(١) (وَعَدَّ اللَّهُ)^(٢) (صِبْغَةَ اللَّهِ) ثم (الصنع) هو عمل الإنسان، بعد تدرب فيه وتروّ وتجرى إجادة. ولا يسمى كل عمل صناعة، ولا كل عامل صانعاً، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه. وقوله (الَّذِي آتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) كابرهان على إتقانه ، والدليل على إحكام خلقته ، وتسوية مروره على ما ينبغي . لأن إتقان كل شيء ، يتناول إتقانه . فهو ثنائية للمراد وتكريره له ، كقوله تعالى^(٣) (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال: وقد اشتملت هذه الآية على وجوه من التأكيد، وأنحاء من المبالغة . فمن ذلك تعبيره (بالصنع) الذي هو الفعل الجميل المتقن المشتمل على الحكمة . وإضافته إليه تعالى ، تعظيماً له وتحقيقاً لإتقانه وحسن أعماله . ثم توصيفه سبحانه بإتقان كل شيء ، ومن جملة هذا المرور . ثم إرادته بالجملة الاسمية الدالة على دوام هذه الحالة واستمرارها مدى الدهور . ثم التقييد بالحال، لتدل على أنها لا تنفك عنها دائماً . فإن قوله تعالى (وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ) حال من المفعول به، وهو الجبال . ومعمول لفعله الذي هو رؤيتها على تلك الحال .

فهذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها في هذه النشأة .

وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة ، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام . وأن حسابها جامدة لعدم تبين حركة كبار الأجرام إذا كانت في سمت واحد . فإن ذلك لا يلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير . على أن ذلك نقض وإهدام ، وليس من صنع وإحكام . قال: والعجب من حذاق العلماء المفسرين، عدم تعرضهم لهذا المعنى ، مع ظهوره واشتغال الكتب الحكيمة على قول بعض القدماء . مع أنه أولى وأحق من تنزيل احتمالات كتاب الله على القصص الواهية الإسرائيلية، على ماشحنوا بها كتبهم . وليس هذا بخارج عن قدرة الله تعالى ، ولا بعيد عن حكمته ، ولا القول به بمصادم للشريعة والعقيدة الحقمة ، بعد أن تعتقد أن كل شيء حادث بقدرة الله تعالى وإرادته وخلقته بالاختيار، كأثنا ما كان ، وهو العليّ الكبير ، وعلى ما يشاء قدير .

(١) [٤ / النساء / ١٢٢] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٨] (٣) [٣ / آل عمران / ٩٧]

واعلم أن هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ) الآية ، اعتراض في تضاعيف مساقه من الآيات الدالة على أحوال الحشر وأحوال القيامة، كاعتراض توصية الإنسان بوالديه في تضاعيف قصة لقمان . ومثل ذلك ليس بعزير في القرآن .

وفأدته هنا، التنبيه على سرعة تقضى الآجال ومضى الآماد. والتهويل من هجوم ساعة الموت وقرب ورود وقت المعاد . فإن انقضاء الأزمان ، وتقضى الأوان ، إنما هو بالحركة اليومية المارة على هذه السرعة المنطبقة على أحوال الإنسان . وهذا المرور . وإن لم يكن مبصراً محسوساً ، نكن ما ينبعث منه تبدل الأحوال ، بما يطرأ من تعاقب الليل والنهار وغيره ، بمنزلة المحسوس المبصر^(١) (فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) فيكون هذا معجزة للنبي ﷺ ، مخصوصة به ، إذ لم يخبر به غيره من الأنبياء .

فليس بممكن حمل الآية على تسمير الجبال الواقع عند قيام الساعة ووفاء النشأة الآخرة . إذ ليس هو من (الصنع) في شيء . بل هو إفساد أحوال الكائنات ، وإخلال نظام العالم ، وإهلاك بني آدم . اهـ . كلام المرجاني .

«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» أي لا يعترهم ذلك الفزع الهائل . وقرئ (فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ) بالإضافة وكسر الميم وفتحها . وفزع منوناً وفتح الميم ، على أنه ظرف (لآمنون) أو المحذوف هو صفة للفزع . والتنوين في (يومئذ) عوض عن جملة محذوفة ، أي يوم إذ جاءوا بالحسنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩١] (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

[٩٢] (وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ، فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ)

[٩٣] (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِمَفْعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
 « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيحَةِ فَكُتِبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »
 أى من الشرك والمعاصى « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ » أى مكة « الَّذِي حَرَّمَهَا » أى جعلها محرماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يحتل خلاها . وفيه تعريض بجدد نعمته تعالى فى ذلك ، حيث آمنهم من خوف ، وأجلهم فى أعين القبائل ، ووقاهم من الفتن المنتشرة عند غيرهم ، إجلالاً لهذا البيت . وهم لم يرعوا هذه النعمة بالقيام بواجب شكرها ، من عبادته تعالى وحده ، وسعيهم بالإصلاح « وَلَهُ وَكُلُّ شَيْءٍ » أى خلقا وملكا . فهو خالق كل شىء ومليكه « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى ممن أسلم وجهه لله ، لانهيه « وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ » أى عليكم ، تلاوة الدعوة إلى الإيمان به ، لما اشتمل عليه من سعادة الدارين « فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أى من اتبع ما فيه من توحيد الله ، ونفى الأنداد عنه ، والدخول فى الملة الحنيفة ، واتباع ما أنزل على من الوحي ، فنفعه اهتدائه راجعة إليه ، لإلى « وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ » أى ومن ضل عن الإيمان وأخطأ بزئنه طريق الهدى ، ولم يتبعنى ، فلا على . وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على ما هدانا لهذا الدين ، ومن علينا بصراطه المستقيم « سِيرِيكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » كقوله تعالى (١) سِرِّيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ آتَيْنَاهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) وقوله (٢) (وَتَعَلَّمَنَّ نَبَأَهُ وَبَعْدَ حِينٍ) « وَمَا رَبُّكَ بِمَفْعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى من الشرك والتكذيب ونصب السكايد . بل هو شهيد رقيب ، جل جلاله وعظم نواله ، ولا إله غيره .

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] . (٢) [٣٨ / ص ٨٨] .